

تفسير ابن كثير

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ^ج إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ^ط فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ^ج انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ^ط سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^ق وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى ، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ، ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه ، سواء كان حقا أو باطلا أو ضلالا أو رشادا ، أو صحيحا أو كذبا ؛ ولهذا قال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) [التوبة : 31] . وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم قال : زعم الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ، عن عمر : أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ،
فإنما أنا عبد الله ورسوله " . ثم رواه هو وعلي بن المديني ، عن سفيان بن عيينة ، عن
الزهري كذلك . وقال علي بن المديني : هذا حديث صحيح سنده وهكذا رواه البخاري ،
عن الحميدي ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، به . ولفظه : " فإنما أنا عبد ، فقولوا :
عبد الله ورسوله " . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ،
عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك : أن رجلا قال : محمد يا سيدنا وابن سيدنا ،
وخيرنا وابن خيرنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس ، عليكم بقولكم
، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن
ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل " . تفرد به من هذا الوجه . وقوله : (ولا
تقولوا على الله إلا الحق) أي : لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا - تعالى الله عن
ذلك علوا كبيرا ، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو ،
ولا رب سواه ؛ ولهذا قال : (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى
مريم وروح منه) أي : إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه ، قال له : كن فكان ،

ورسول من رسله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، أي : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل ،
عليه السلام ، إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ، عز وجل ، فكان عيسى بإذن
الله ، عز وجل ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت
فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق الله ، عز وجل ؛ ولهذا قيل لعيسى : إنه
كلمة الله وروح منه ؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال
له بها : كن ، فكان . والروح التي أرسل بها جبريل ، قال الله تعالى : (ما المسيح ابن
مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) [المائدة : 75
[وقال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن
فيكون) [آل عمران : 59] . وقال تعالى : (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من
روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) [الأنبياء : 91] وقال تعالى : (ومريم ابنت عمران
التي أحصنت فرجها [فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من
القانتين]) [التحريم : 12] . وقال تعالى إخبارا عن المسيح : (إن هو إلا عبد أنعمنا
عليه [وجعلناه مثلاً لِّبنِي إِسْرَءِيلَ]) [الزخرف : 59] . وقال عبد الرزاق ، عن معمر ،

عن قتادة : (وكلمته ألقاها إلى مريم) هو كقوله : (كن) [آل عمران : 59] فكان
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال : سمعت شاذ بن يحيى يقول :
في قول الله : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) قال : ليس الكلمة صارت عيسى ،
ولكن بالكلمة صار عيسى . وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : (ألقاها إلى مريم)
أي : أعلمها بها ، كما زعمه في قوله : (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة
منه) [آل عمران : 45] أي : يعلمك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كما قال تعالى : (وما
كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) [القصص : 86] بل الصحيح
أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم ، فنفخ فيها بإذن الله ، فكان عيسى ، عليه
السلام . وقال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، حدثنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني
عمير بن هانئ ، حدثني جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده
ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ،
والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " . قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن

بن يزيد بن جابر ، عن عمير بن هانئ ، عن جنادة زاد : " من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء " . وكذا رواه مسلم ، عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن ابن جابر ، به ومن وجه آخر ، عن الأوزاعي ، به . فقله في الآية والحديث : (وروح منه) كقله (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) [الجاثية : 13] أي : من خلقه ومن عنده ، وليست " من " للتبويض ، كما تقول النصارى - عليهم لعائن الله المتابعة - بل هي لابتداء الغاية ، كما في الآية الأخرى . وقد قال مجاهد في قوله : (وروح منه) أي : ورسول منه . وقال غيره . ومحبة منه . والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله ، في قوله : (هذه ناقة الله) [هود : 64] . وفي قوله : (وطهر بيتي للطائفين) [الحج : 26] ، وكما ورد في الحديث الصحيح : " فأدخل على ربي في داره " أضافها إليه إضافة تشريف لها ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد . وقوله : (فآمنوا بالله ورسوله) أي : فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ؛ ولهذا قال : (ولا تقولوا ثلاثة) أي : لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ،

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد) [المائدة : 73] .

وكما قال في آخر السورة المذكورة : (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس

اتخذوني [وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك] (الآية [المائدة : 116] ، وقال

في أولها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) الآية [المائدة : 72] ،

فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم

وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقد إلهها ، ومنهم من يعتقد شريكا ، ومنهم من يعتقد

ولدا . وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة ، ولقد أحسن بعض

المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لا فترقوا على أحد عشر قولا . ولقد

ذكر بعض علمائهم المشاهير ، وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة

أربعمائة من الهجرة النبوية ، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة

التي لهم ، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة ، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة

المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين

أسقفا ، فكانوا أحزابا كثيرة ، كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ،
ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى عصابة منهم قد
زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرا ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها الملك ونصرها
وأيدها - وكان فيلسوفا ذا هيئة - ومحق ما عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك
الثلاثمائة والثمانية عشر ، وبنيت لهم الكنائس ، ووضعوا لهم كتباً وقوانين ، وأحدثوا
الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار - ليعتقدوها - ويعمدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هم
الملكية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانيا فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعا ثالثا فحدث فيهم
النسطورية . وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك
وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم ! هل اتحدا ، أو ما اتحدا ، بل امتزجا أو حل فيه ؟
على ثلاث مقالات ، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ، ونحن نكفر الثلاثة ؛ ولهذا قال
تعالى : (انتهوا خيرا لكم) أي : يكن خيرا لكم (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له
ولد) أي : تعالى وتقدس عن ذلك علوا كبيرا (له ما في السماوات وما في الأرض
وكفى بالله وكيفا) أي : الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيها عبيده ، وهم تحت

تديره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد ؟ كما قال في الآية الأخرى : (بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) [الأنعام : 101] ، وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . [تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا]) [مريم : 88 : 95] .